المُحَاضرة الرَّابعة: إعجازُ القُرآنِ عند الجاحظِ (ت:255هـ) والرُّمَّاني (ت:384هـ)

المسألة الأولى: معالم الدَّرسِ الإعجازيِّ عند الجاحظِ (ت:255هـ) عفا الله عنه

الكلامُ عن الإعجازِ عند الجاحظ يندرجُ في (الدَّورِ الأوَّلِ) من أدوار تاريخ التَّأليف في إعجاز القُرآن؛ الَّذي هو (دَورُ الإشارات)؛ وسنجعلُ حديثنا عنه في النُّقطتين الآتيتين:

أوَّلاً: مَنْ هو الجاحظ؟

– هو: أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بنُ بَحْرِ بنِ مَحْبُوْبٍ البَصْرِيُّ، المُعْتَزِلِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ.

– أديبٌ متبحِّرٌ في فنون اللُّغة. قال الذَّهبيُّ رحمه الله (ت:748هـ): «كَانَ مَاجِناً، قَلِيْلَ الدِّيْنِ، لَهُ نَوَادِرُ. [... و] كَانَ مِنْ بُحُوْرِ العِلْمِ، وَتَصَانِيْفُه كَثِيْرَةٌ جِدّاً. قِيْلَ: لَمْ يَقَعْ بِيَدِهِ كِتَابٌ قَطُّ إِلاَّ اسْتَوفَى قِرَاءتَه، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَكتَرِي دَكَاكِيْنَ الكُتُبِيِّيْنَ، وَيَبِيتُ فِيْهَا لِلْمُطَالَعَةِ، وَكَانَ بَاقِعَةً فِي قُوَّةِ الحِفْظِ»[1].

– من أشهر تصانيفه: البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، والبخلاء.

– توفِّي الجاحظُ سنة: 255هـ[2].

ثانيًا: خُلاصَةُ رأيه في الإعجاز

ليسَ للجاحظِ مُؤلَّفٌ خاصٌّ في إعجاز القُرآن –كما أسلفنا عند تأريخِ مُصطلح الإعجاز –؛ ولكنَّ له إشاراتٍ كثيرةً في كتبه الَّتي وصلتنا؛ خاصَّةً في كتابيه (الحيوان، والبيانُ والتبيين)، ومجموعِ رسائله الَّذي فيه رسالةٌ مسيسةُ الصِّلةِ بقضيَّةُ الإعجاز القُرآنيِّ؛ وهي رسالة (حجج النُّبوَّة)، ولكون كلامه في الإعجاز مبثُوثًا في ثنايا كتبه؛ فسنُحاول أن نُركِّز على ثلاثِ مسائل تُوقِفُنا على مُجمل رأيه، وهي: إعجاز القرآن آيةٌ من آيات النبوة، والقدر المعجز، ووجه الإعجاز. وهذا تفصيلُها:

– إعجازُ القُرآنِ آيةٌ من آياتِ النُّبُوَّةِ: وهذا المعنى دندنَ حوله كثيرًا الجاحظُ، وكلماته فيه هي الَّتي كانت مصدر إلهامِ مَنْ جاءَ بعدَه ممَّن تكلَّم في الإعجاز، خاصَّة بالنِّسبة لمصطلحات التَّحدِّي والعجز والمعارضة، ولعلَّنا ننتقي منها بعضَ النُّصوص الدَّالَّة:

---

[1] الذهبي، السير، ج11، ص527.

[2] يُنظر: ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ج5، ص2101. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص470. و: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11، ص526.

– فمن ذلك؛ تمهيدُه للكلام عن إعجاز القرآن، بأنَّ آيةَ كلِّ نبيٍّ تأتي على نَمَطِ الشَّيءِ الَّذي برع فيه قومُه، حتَّى يكونَ التَّحدِّي في جِنسِ ما يُحسنه القوم؛ فلمَّا برعَ قومُ فرعون في السحر؛ أتاهم موسى ﷺ بما يُبطلُه ويُوهِّنه، ويكشف ضعفه ويُظهره، وهو العصا التي تنقلب حية. ولما برع قومُ عيسى ﷺ في الطِّبِّ؛ أتاهم عيسى ﷺ بما يعجزون عن مثله؛ إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص[1]. قال الجاحظ: «وكذلك دهرَ محمد ﷺ، كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حسن البيان، ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به. فحين استحكمت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله ﷻ؛ فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه. فلم يزل يقرعهم بعجزهم، وينتقصهم على نقصهم، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبين لأقويائهم وخواصهم. وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط، مع سائر ما جاء به من الآيات، ومن ضروب البرهانات»[2].

– كما يقول: «مع أن محمداً ﷺ مخصوص بعلامة لها في العقل موقعٌ، كموقع فَلْقِ البحر من العين، وذلك قوله لقريش خاصة، وللعرب عامة، مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء، والدهاة والحلماء، وأصحاب الرأي والمكيدة، والتجارب والنظر في العاقبة: إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي، وصدقتم في تكذيبي.

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف عللهم، والكلامُ كلامُهم، وهو سيد علمِهم، فقد فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب، والذباب والكلاب، والخنافس والجعلان، والحمير والحمام، وكل ما دب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب. ولهم بعدُ أصنافُ النظمِ، وضروب التأليف، كالقصيد، والرجز، والمزدوج، والمجانس، والأسجاع والمنثور.

وبعد، فقد هجوه من كل جانب، وهاجى أصحابه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وحاجوه في المواقف، وخاصموه في المواسم، وبادوه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم، وقتلوا منه، وهم أثبت الناس حقداً، وأبعدهم مطلباً، وأذكرهم لخير أو لشر، وأنفاهم له، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوة، ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر»[3].

---

[1] يُنظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، ج3، ص278-279.

[2] المصدر نفسه، ج3، ص279-280.

[3] الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، ج3، ص274.

– كما أنَّ مِنْ أَجَلِّ النُّصوصِ الَّتي نقلها عنه السُّيوطيُّ رحمه الله (ت:911هـ) في (الإتقان) قولُهُ: «بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَكْثَرَ مَا كَانَتِ الْعَرَبُ شَاعِرًا وَخَطِيبًا، وَأَحْكَمَ مَا كَانَتْ لُغَةً، وَأَشَدَّ مَا كَانَتْ عُدَّةً، فَدَعَا أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَصْدِيقِ رِسَالَتِهِ، فَدَعَاهُمْ بِالْحُجَّةِ، فَلَمَّا قَطَعَ الْعُذْرَ وَأَزَالَ الشُّبْهَةَ، وَصَارَ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِقْرَارِ الْهَوَى وَالْحَمِيَّةُ، دُونَ الْجَهْلِ وَالْحَيْرَةِ، حَمَلَهُمْ عَلَى حَظِّهِمْ بِالسَّيْفِ، فَنَصَبَ لَهُمُ الْحَرْبَ وَنَصَبُوا لَهُ، وَقَتَلَ مِنْ عِلْيَتِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَبَنِي أَعْمَامِهِمْ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ، وَيَدْعُوهُمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً إِلَى أَنْ يُعَارِضُوهُ إِنْ كَانَ كَاذِبًا، بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ بِآيَاتٍ يَسِيرَةٍ؛ فَكُلَّمَا ازْدَادَ تَحَدِّيًا لَهُمْ بِهِ، وَتَقْرِيعًا لِعَجْزِهِمْ عَنْهَا؛ تَكَشَّفَ مِنْ نَقْصِهِمْ مَا كَانَ مَسْتُورًا، وَظَهَرَ مِنْهُ مَا كَانَ خَفِيًّا، فَحِينَ لَمْ يَجِدُوا حِيلَةً وَلَا حُجَّةً؛ قَالُوا لَهُ: أَنْتَ تَعْرِفُ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ مَا لَا نَعْرِفُ، فَلِذَلِكَ يُمْكِنُكَ مَا لَا يُمْكِنُنَا، قَالَ: فَهَاتُوهَا مُفْتَرِيَاتٍ، فَلَمْ يَرُمْ ذَلِكَ خَطِيبٌ، وَلَا طَمَعَ فِيهِ شَاعِرٌ، ولو طَمَعَ فِيهِ لَتَكَلَّفَهُ، وَلَوْ تَكَلَّفَهُ لَظَهَرَ ذَلِكَ، وَلَوْ ظَهَرَ لَوَجَدَ مَنْ يَسْتَجِيدُهُ وَيُحَامِي عَلَيْهِ، وَيُكَايِدُ فِيهِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ عَارَضَ وَقَابَلَ وَنَاقَضَ، فَدَلَّ ذَلِكَ الْعَاقِلَ عَلَى عَجْزِ الْقَوْمِ، مَعَ كَثْرَةِ كَلَامِهِمْ، وَاسْتِحَالَةِ لُغَتِهِمْ، وَسُهُولَةِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَكَثْرَةِ شُعَرَائِهِمْ وَكَثْرَةِ مَنْ هَجَاهُ مِنْهُمْ، وَعَارَضَ شُعَرَاءَ أَصْحَابِهِ وَخُطَبَاءَ أُمَّتِهِ، لِأَنَّ سُورَةً وَاحِدَةً وَآيَاتٍ يَسِيرَةً كَانَتْ أَنْقَضَ لِقَوْلِهِ وَأَفْسَدَ لِأَمْرِهِ وَأَبْلَغَ فِي تَكْذِيبِهِ وَأَسْرَعَ فِي تَفْرِيقِ أَتْبَاعِهِ مِنْ بَذْلِ النُّفُوسِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الْأَوْطَانِ وَإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ وَهَذَا مِنْ جَلِيلِ التَّدْبِيرِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ هُوَ دُونَ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ بِطَبَقَاتٍ وَلَهُمُ الْقَصِيدُ الْعَجِيبُ وَالرَّجَزُ الْفَاخِرُ وَالْخُطَبُ الطِّوَالُ الْبَلِيغَةُ وَالْقِصَارُ الْمُوجَزَةُ وَلَهُمُ الْأَسْجَاعُ وَالْمُزْدَوَجُ وَاللَّفْظُ الْمَنْثُورُ، ثُمَّ يَتَحَدَّى بِهِ أَقْصَاهُمْ بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ عَجْزَ أَدْنَاهُمْ فَمُحَالٌ– أَكْرَمَكَ اللَّهُ – أَنْ يَجْتَمِعَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ عَلَى الْغَلَطِ فِي الْأَمْرِ الظَّاهِرِ وَالْخَطَأِ الْمَكْشُوفِ الْبَيِّنِ؛ مَعَ التَّقْرِيعِ بِالنَّقْصِ وَالتَّوْقِيفِ عَلَى الْعَجْزِ، وَهُمْ أَشَدُّ الْخَلْقِ أَنَفَةً، وَأَكْثَرُهُمْ مُفَاخَرَةً، وَالْكَلَامُ سَيِّدُ عَمَلِهِمْ، وَقَدِ احْتَاجُوا إِلَيْهِ؛ وَالْحَاجَةُ تَبْعَثُ عَلَى الْحِيلَةِ فِي الْأَمْرِ الْغَامِضِ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وَكَمَا أَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يُطْبِقُوا ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى الْغَلَطِ فِي الْأَمْرِ الْجَلِيلِ الْمَنْفَعَةِ، فَكَذَلِكَ مُحَالٌ أَنْ يَتْرُكُوهُ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَيَجِدُونَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ، وَهُمْ يَبْذُلُونَ أَكْثَرَ مِنْهُ»[1].

– **القدر المُعجِزُ**: ذكرنا من قبلُ عند الكلام عن القدر المعجز؛ أنَّ أحرى الأقوال بالاعتبار في هذا الصَّدد؛ أنَّ القَدر المعجز من القرآن هو سورة – ولو قصيرة – من القرآن، أو ما يُعادلها من الكلام الَّذي تتَّضحُ فيه خصائص التَّراكيب والأسلوب، ولعلَّ الجاحظَ عفا الله عنه مِن أوَّلِ مَن أشار إلى هذه القضيَّة. يقول

[1] السيوطي، الإتقان، ج4، ص6–7. ولم أجدْ هذا النَّصَّ للجاحظ بحروفه في كتبه المطبوعة كالبيان والتبيين والحيوان ورسالة حجج النبوة.

في (حجج النبوة): «لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها. ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها. وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين.

ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم، ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله، وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع؛ ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان»[1].

– **وجهُ الإعجاز**: هذه من المِسائل النَّظريَّة في إعجاز القرآن، ولم يكنِ الكلامُ فيها صَراحةً على عهد الجاحظ؛ ولكنَّا لا نعدَمُ إشاراتٍ إليها، وممَّا يُمكنُ أن ننسِبَ إلى الجاحظِ القول به من أوجُهِ الإعجاز؛ وجهان اثنان: الإعجاز البيانيُّ، والقَولُ بالصَّرفةِ[2].

أمَّا الإعجاز البياني؛ فيُمكنُ أنَّ نعُدَّ الجاحظَ رائدَ القولِ به؛ إذ أنَّه كان من المنافحين عن فصاحة ألفاظ القرآن، وبلاغة معانيه، وتفرُّدِ نظمه وأسلوبه. قال الرَّافعيُّ رحمه الله (ت:1356هـ=1937م): «أما الجاحظ؛ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه»[3]. ولذلك ألَّف كتابه (نظمُ القرآن) الَّذي لم يبق لنا منه إلاَّ قولُ الجاحظِ ذاته في كتاب (الحيوان): «ولي كتابٌ؛ جمعت فيه آيًا من القرآن؛ لتعرف بها فصلَ ما بين الإيجازِ والحذفِ، وبين الزَّوَائد والفضول، والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، على الَّذِي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول. فمنها ﷻ قوله حين وصف خمر أهل الجنَّة: (لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ)[الواقعة:19] وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدُّنيا. وقوله ﷻ حين ذكر فاكهة أهل الجنَّة فقال: (لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ)[الواقعة:33] جمع بهاتين الكلمتين جميع

[1] الجاحظ، رسائل الجاحظ (حجج النبوة)، ج3، ص229.

[2] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص40.

[3] الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص102.

تلك المعاني. وهذا كثير قد دللتك عليه، فإن أردته فموضعه مشهور»[1]. على أنَّ هذا الكتاب مفقودٌ، وجزمَ الشيخ أبو فهرٍ محمود شاكر رحمه الله (ت:1417هـ=1998م) أنَّه يعني كتاب (نظم القرآن)[2].

وأمَّا الإعجاز بالصَّرفة؛ فإنَّهُ من بقايا آثارِ شيخِه النَّظَّامِ فيه، وإنْ حاولَ أن يُنْكِرَ ذلك بعضُ المحدَثين[3]، قال الرَّافعيُّ رحمه الله (ت:1356هـ=1937م): «غيرَ أنَّ الرجلَ كثيرُ الاضطرابِ، فإن هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في مُنخُلٍ، ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرفة، وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عُرض [...] وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أُستاذه، وهو شيء ينزل على حكم الملابسة، ويعتري أكثر الناس، إلا من تنبه له أو نبه عليه، أو هو يكون ناقلاً ولا ندري»[4].

– والجمعُ بين الرَّأيين (الإعجاز البيانيِّ والإعجاز بالصَّرفة) من أشدِّ التَّناقُضِ، ولذلك نجد العلاَّمة محمود شاكر رحمه الله (ت:1417هـ=1998م) يقول: «ومعنى هذا أن مع القرآن العظيم عجزين؛ عجزٌ مردُّه إلى الصَّرفة، وعجزٌ مردُّه إلى نظم القرآن وتأليفه، أمَّا الجمعُ بين العجزين؛ فلا يجتمعُ في عقل أحدٍ يعقلُ؛ فأحدهما يُلغي الآخر [...] لكنْ هكذا كان ما كان من أبي عثمان الجاحظ البليغ المعتزليِّ، عقلٌ واحدٌ يجمع بين المتناقضين، جمعٌ لا غضاضة فيه عليه (وهل يُجمَعُ السَّيفان ويحك في غمد) كما تعجَّب أبو ذُؤيب الهذلي من أمرِ صاحبته أمِّ عمرو، فأنا أتعجب أيضًا من أمر صاحبي أبي عثمان.

ومع ذلك؛ فأنا أظنُّ أن أبا عثمان كان يُعاني المشقَّة من هذا التَّناقض، بين ما ألفه زمنًا مع صاحبه أبي إسحاق في تأليف القرآن من القول في (الصرفة) التي اخترعاها معًا، وما أدت من القول الخبيث الذي قاله أبو إسحاق النظام، وبين ما هُدِي إليه بالتذوق من أن نظم القرآن وتأليفه يُعجزُ كلَّ أحدٍ»[5].

كما يؤكِّدُ على هذه الحقيقة الأستاذ محمد محمد أبو موسى في قوله: «نعم، هناك تناقضٌ واضحٌ بين القول بالصَّرفة والبلاغة، لأنَّ الصَّرفة تعني كما فسَّرها أبو إسحاق النظام؛ أنَّهم لولا هذا الصَّرفُ لجاءوا بمثله، وذلك يعني أنه ليس خارقًا ببلاغته، وإنما هو خارق بهذا الصَّرف»[6].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج3، ص41-42.

[2] يُنظر: محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص72.

[3] يُنظر: نعيم الحمصي، فكرة الإعجاز، 56. و: الخطيب، الإعجاز في دراسات السابقين، ص177-178.

[4] الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة، ص102-103.

[5] محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص12-13.

[6] محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ص87.

المسألة الثَّانيةُ: إعجازُ القُرآن عند الرُّمَّانيِّ (ت:**384**هـ) رحمه الله

الكلامُ عن الإعجاز عند الرُّمَّانيِّ رحمه الله يندرجُ في الدَّورُ الثَّاني؛ الَّذي هو دور الرَّسائل أو الأجزاء؛ لأنَّ له في الإعجاز رسالة (النُّكت في إعجاز القرآن)، ولكن قبل أن نُدلف إلى رأيه في الإعجاز، نعرف به فنقول:

أوَّلاً: من هو الرُّمَّانيُّ؟

– الرُّمَّانيُّ هو: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني؛ النحوي المتكلم المعتزليُّ.

– أخذ عن ابن السراج وابن دريد والزجاج، وله تصانيف في جميع العلوم من النحو واللغة والنجوم والفقه والكلام على رأي المعتزلة، ولكن جُلَّها مفقود، والموجود منها: النكت في إعجاز القرآن مطبوع، والجامع لعلم القرآن في التفسير، وهو مخطوط؛ المتوفر منه جزء من تفسير سورة آل عمران[1].

– قال ابنُ خلِّكان (ت:681هـ): «والرماني: بضم الراء وتشديد الميم وبعد الألف نون، هذه النسبة يجوز أن تكون إلى الرمان وبيعه، ويمكن أن تكون إلى قصر الرمان، وهو قصر بواسط معروف».

– وقال الذَّهبيُّ (ت:748هـ): «وَكَانَ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيْدِيُّ يبالغُ فِي تعظيمِ الرُّمَّانِيِّ إِلَى الغَايَةِ، وَيصفُهُ بِالتَّأَلُّهِ، وَالتّنَزُّهِ، وَالفصَاحَةِ، وَالتَّقْوَى. مَاتَ فِي جُمَادَى الأُولَى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ، عَنْ ثَمَانٍ وَثَمَانِيْنَ سَنَةً. أَصلُهُ مِنْ سُرَّ مَنْ رَأَى، وَمَاتَ بِبَغْدَادَ، وَكَانَ مِنْ أَوْعِيةِ العِلْمِ عَلَى بِدْعَتِهِ»[2].

ثانيًا: خُلاصةُ رأيه في الإعجاز من خلال رسالته (النُّكت في إعجاز القرآن)

– معنى (النُّكت): سمَّى الرُّمَّانيُّ رحمه الله كتابه (النكت في إعجاز القرآن)، والنكت هي الآثارُ اللَّطيفة الَّتي تحتاج إلى شيءٍ من الفطنة وحُسنِ التَّأني لإدراكها، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه لم يكتب كتابه ليُضيءَ الجوانب المتعددة في الإعجاز، وإنما أوجز رسالة تُشبه المقال[3]، يدلُّكَ على ذلك:

– دخول الموضوع مباشرةً دون مقدمات ممهدات: كان كتاب (النُّكت) إجابةً على سُؤالٍ طُرح على الرُّمَّانيِّ رحمه الله، ولذلك فإنَّه – بعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ – دخل في الموضوع مباشرةً دون مُقدِّماتٍ. قال الأستاذ فضل عباس رحمه الله: «وما كتبه الرمانيُّ كان إجابةً لبعض طلبة العلم، كما يظهر من مقدمته الموجزة، ولقد التزم الرماني القول الموجز في هذه الرسالة، وهجم على الموضوع دون مقدمات»[4].

---

[1] يُنظر: مساعد الطيار، التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ص206.

[2] يُنظر: ياقوت، معجم الأدباء، ج4، ص1826. و: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص299. و: الذهبي، السير، ج16، ص533.

[3] يُنظر: أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص85.

[4] فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص42.

وحتَّى تقف على مقدمة الرمانيِّ ذاتها؛ ننقلها بنصِّها. قال: «سألْتَ وفَّقَك اللهُ عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون تطويل بالحجاج، وأنا أجتهد في بلوغ محبتك، والله الموفق للصواب بمنه ورحمته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة»[1].

– إجمالُ وجوه الإعجاز في سبعةٍ: استهلَّ الرُّمَّانيُّ رحمه الله رسالته بإجمالِ الجِهاتِ الَّتي وقع بها الإعجاز، وقد نَصَّ على أنَّها سبعةٌ هي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزةٍ.

1- أمَّا ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة؛ فمعناه أنَّ العربَ عجزُوا عن مُعارضة القرآن؛ مع أنَّهُ توفَّر لهم أمران، كلٌّ منهما سببٌ في إنجاحِ مُبتغاهم في معارضته، وهما: توفُّرُ الدَّواعي؛ أي القُدرةُ على المعارضة؛ لأنَّ الكلام كلامهم، والصناعة صناعتهم، وقد أُعطُوا البلاغة والفصاحة طبعًا وسليقة ما لم تُعطَهُ أمَّةٌ من الأمم. والآخر: شدَّة الحاجة إلى المعارضةِ؛ ذلك أنَّ القُرآن سفَّه أحلامهم، وعاب عبادتهم ومعبوداتهم، ولم يُبقِ لهم منفذًا لتكذيبه إلاَّ أن يُعارضوه ولو بسورة مثله، ومع ذلك لم يجْرؤْ أحدٌ منهم على المعارضة[2].

قال الرُّمَّانيُّ رحمه الله (ت:384هـ) في شرح هذا الوجه: «أما توفر الدواعي؛ فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة في واحد كان أو جماعة. والدليل على ذلك أن إنسانا لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه، وكل داع يدعو إلى مثله، وهو مع ذلك ممكن له؛ فلا يجوز ألا يقع شربه حتى يموت عطشا، لتوفر الدواعي على ما بينا، فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له؛ دل ذلك على عجزه عنه. فذلك توفر الدواعي إلى معارضة القرآن لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها»[3].

2- وأمَّا التحدِّي للكافة؛ فمعناه أنَّ القُرآن الكريم تحدَّاهم قاطبةً، واستفزَّهم جميعًا لينهضُوا إلى مُعارضته، فلم يكن ذلك منهم، وهذا راجعٌ إلى عَجزهم[4].

---

[1] الرماني، النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص75.

[2] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص43-44.

[3] الرماني، النكت، ص109.

[4] يُنظر: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغيُّ، ص86.

وهذان الوجهان في الحقيقة ليسا أوجُهًا للإعجاز، وإنَّما هُما من الشُروط الَّتي يجبُ توفُّرها في كلِّ مُعجزة[1].

3- وأمَّا الصرفة؛ فلم يُطَوِّلُ الرُّمَّانيُّ في شرحها والاحتجاج لها، وما ذلك والله أعلم إلاَّ لأنَّه كان من رؤوسِ الاعتزال، فالمسألة عنده أشبهُ ما تكون بالمسَلَّماتِ الَّتي لا تُناقشُ[2]. وقد قال عنها: «وأما الصرفةُ؛ فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم؛ في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول»[3].

4- وأمَّا البلاغة: فسيأتي الكلامُ عنها في المسألة التَّالية.

5- وأمَّا الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة؛ فإنَّه لما كان من المستحيل أن تقع اتِّفاقًا على ما يُخبرهم النبيُّ ﷺ؛ خاصَّةً مع كثرتها وتواليها، كان ذلك دليلاً على أنَّها من عند علاَّم الغيوب. وقد ضرب الرماني على ذلك أمثلة عديدة؛ كقوله تعالى: (فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)، وقوله ﷻ: (سيهزم الجمع ويولون الدبر)، وقوله: (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون). ووقعَ كلُّ ذلك على النَّحو الَّذي أخبر ﷺ لم يتخلَّفْ عن ذلك خبرٌ واحدٌ[4].

6- وأمَّا نقض العادة؛ فليس المقصود به (خرقُ العادة) المذكور في حدِّ المعجزة؛ وإنَّما المراد به «أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث؛ فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوقُ بهِ كلَّ طريقةٍ»[5].

---

[1] يُنظر: صالح العليوي، مقال (الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 15، سنة 1426هـ-2015م، ص191.

[2] يُنظر: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغيُّ، ص86-87.

[3] الرماني، النكت، ص110.

[4] يُنظر: الرماني، النكت، ص110-111. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص44. و: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص76.

[5] الرماني، النكت، ص111.

7- وأمَّا قياسه بكل معجزة؛ فمعناه مُساواةُ معجزة القرآن المعنويَّة للمعجزات المادِّيَّة؛ فلق البحر، وقلب العصا حيَّةً، من جهة كون الجميعِ خارقًا للعادة، معجُوزًا عن مُعارضته. وهذا عند التحقيق ليس من أوجه الإعجاز؛ لأنه قياس للمعجزة بغيرها بعد أن صارت مُعجزةً، وليس بيانًا لوجه كونها مُعجزةً[1].

– العنايةُ والتَّركيزُ على الوجه الرَّابع (البلاغة):

قَدَّم الرمانيُّ الحديثَ عن البلاغة، وشُغِلَ به أكثر الرِّسالة؛ إذ تقع الرسالة في حوالي أربعين (40) صفحةً، استنفذ منها قرابة الخمس والثلاثين في الوجه البلاغيِّ، وما ذلك إلاَّ لأهمية هذا الوجه عنده، ولكون أغلب الأوجه الأخرى مردُّها إليه، أما الوجوه الثلاثة قبلها والوجوه الثلاثة بعدها، فقد أرجأ الحديث عنها إلى آخر الرسالة ليتكلم عنها بإيجاز[2].

ويقول: «فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة. ومنها ما هو في أدنى طبقة. ومنها ما هو في الوسائط، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون تلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس.

وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلّمان أحدهما بليغ والآخر عييّ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلّف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ... فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة»[3].

ويقسم الرماني بعد ذلك البلاغة إلى عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

ثم يفسر كل قسم منها، فيعرف الموضوع ثم يقسمه إلى نواحيه ويستشهد لكل ناحية بالآيات القرآنية[4].

---

[1] يُنظر: محمد أبو موسى، ص86.

[2] يُنظر: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص43. و: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص50. و: محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغيُّ، ص86.

[3] الرماني، النكت، ص76.

[4] يُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص50-51.

– طريقة عرض الرُّمانيِّ للمادَّة:

لم تَغِبْ طريقة عرضِ المتكلِّمين لمادَّتهم عن الرُّمَّانيِّ في (النُّكت)؛ إذ أنَّه كان كلَّما قرَّر تقريرًا أو أوضحَ أمرًا؛ إلاَّ وأتبعه بقوله: (فإن قالوا: كذا؛ قلنا: كذا، وإن قيل: لِمَ كان ذاك؟ قلنا: كذا وكذا)؛ كأنَّه يتصوَّرُ مُنازعًا ينازعه فيما يُقرِّر؛ فهو يُوردُ الإيرادَ، ويردُّ عليه بما يحضُره.

كما أنَّ من الملاحظِ في كتاب الرُّمَّاني تركيزه على الشَّواهد القرآنيَّة، إذ لا تكاد تجده مُستشهدًا على أي نوعٍ من أنواع البلاغات الَّتي ذكرها إلاَّ بآية من آيات القرآن الكريم.

– القيمة العلميَّة لآراء الرُّمَّانيِّ عند المؤلِّفين بعده:

لا ريبَ أنَّ آراءَ الرُّمانيِّ رحمه الله الَّتي بثَّها في كتاب (النَّكت)؛ خاصَّةً ما تعلَّق منها بباب البلاغة، قد هيَّأت لنضوج ذلك العلم من بعدُ على يد عبد القاهر الجرجانيِّ، وقد تمثلت جُهوده في التَّقسيم، ووضع الضَّوابط، وتأصيل المصطلحات، والتَّمثيل والاستشهاد لكلِّ قسمٍ، وحسبُكَ بجُهد الرماني رحمه الله قيمةً؛ أن أقسامه العشرة للبلاغة وضوابطها ما زالت هي ذاتها إلى يومنا هذا، مع تعديلاتٍ يسيرة في الشكل والعبارة[1].

[1] يُنظر: صالح العليوي، الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني، ص206-207.